فن الفسيفساء بتونس ذاكرة بصرية حضارية وبناء تفاعلي للهوية

The Art of Mosaic in Tunisia: Visual Heritage Memory and the Interactive Shaping of Identity

أ.د. إبتسام بنالكيلاني

دكتوراه في علوم التراث وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بتونس – جامعة جندوبة

المعهد العالي للفنون والحرف بسليانة

Professor. Ibtissam Benkilani

PhD in Heritage Sciences, Ministry of Higher Education and Science, Tunisia - University of Jendouba Higher Institute of Arts and Crafts, Siliana

Ibtissembenkilani@yahoo.fr

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تحليل فن الفسيفساء في تونس باعتباره ممارسة فنية وحرفية ضاربة في عمق التاريخ، محملة بدلالات حضارية ومعرفية، وتؤدي وظيفة مزدوجة: توثيقية للذاكرة البصرية من جهة، وتفاعلية في بناء الهوية الثقافية من جهة ثانية. وتتمثل الإشكالية الجوهرية التي تنطلق منها الدراسة في التساؤل حول مدى قدرة الفنون التطبيقية، ولا سيما الفسيفساء، على أن تمثل سجلاً حضاريًا نابضًا ورافدًا من روافد تعزيز الهوية في ظل تحديات المعاصرة.

ترتكز الدراسة على فرضية مركزية مفادها أن فن الفسيفساء في تونس لا يمكن فهمه إلا من خلال النظر إليه كممارسة متعددة الأبعاد: فنية، تراثية، اقتصادية، وتربوية. كما تفترض الدراسة أن استمرارية هذه الحرفة على الرغم من تعاقب الحقب واختلاف السياقات الفكرية والاجتماعية إنما تعود إلى قدرتها على التكيّف والتجدد، مما يجعلها مهيّأة للعب دور محوري في مستقبل الثقافة البصرية بتونس.

تم اختيار مدينة **الجم** كمجال تطبيقي للبحث بالنظر إلى ما تزخر به من ورشات فسيفسائية نشطة، وتجارب ميدانية حيّة تدمج بين وفاء تقني للمنجزات التاريخية وسعي إلى التجديد في المضامين والمحامل. ويمثّل تحليل إنتاجات مؤسسات مثل "ميكرو موزاييك – دار الجم" محورًا أساسيا في رصد التحولات الراهنة في الحرفة.

الكلمات المفتاحية: الفسيفساء،الفن المعاصر،ممارسة فنية،الفسيفساء المعاصرة

Abstract:

This study examines mosaic art in Tunisia as a multidimensional practice rooted in history, cultural, and artistic meanings. It addresses a central research question: To what extent can applied art, particularly mosaics, serve as a visual archive of cultural memory and a tool for constructing contemporary identity in the context of technological and aesthetic transformation?

The main hypothesis is that Tunisian mosaics are not merely decorative crafts, but rather a living visual language, adaptable and renewable, capable of shaping cultural and educational development. The city of El Jem serves as a guiding example, having been chosen for its vibrant new mosaic workshops, such as "El Jem Micro Mosaic," which embody national and innovative practices.

Keywords : Mosaic, Contemporary Art, Artistic Practice،Contemporary mosaics.

أهداف الدراسة :

تتمثل في:

1. إبراز الوظيفة التوثيقية والجمالية لفن الفسيفساء.
2. تحليل قدرتها (الفسيفساء) على تمثيل التنوع الحضاري التونسي.
3. اقتراح آليات نظرية وتطبيقية لضمان استمراريته وتطويره.

أهمية البحث :

تنبع من التقاء بعدين أساسيين:

- البعد الأكاديمي المتعلق بفهم آليات بناء الهوية عبر الفنون.
- البعد العملي المرتبط بإمكانية إدماج هذه الحرفة في مسارات التنمية الثقافية والاقتصادية.

منهجية الدراسة :

اتبعت الدراسة منهجًا كيفيًّا وتحليليًّا، قائمًا على الملاحظة الميدانية في مدينة الجم، وتحليل نماذج بصرية مختارة، إلى جانب الرجوع إلى المصادر الأدبية والفكرية التي عالجت مفهومي الهوية والذاكرة البصرية. كما تم توظيف مقاربة تركيبية تدمج بين قراءات في تاريخ الفنون والممارسات الحرفية التقليدية.

تقديم:

يعتبر الفن ممارسة إنسانية حاملة لقيم وتصورات تعبيرية تعكس أفكار وآراء الفنان حول قضايا فكرية وثقافية، كما أن الفن في عموم تطبيقاته وتنوع مجالاته كان ولازال صورة حاملة لذّاكرة الإنسانية، فمن خلاله عرفنا ثقافة إنسان قبل ظهور الكتابة بتلك الاثار التي تركها على جدران الكهوف، لنعيش ذات الزمن رغم التباعد الزمني والجغرافي ونعي طرق تعايش الإنسان مع محيطه في ظل ندرة الإمكانيات ومحدودية الفكر، كما كان الفن حافظا لذاكرة صراع المسيح مع مجتمعه فقد سجلت "الصورة" للذاكرة الإنسانية مراحل هذا الصراع، ومنها أيضا (الصورة الفنية) بمحاورها التعبيرية المتنوعة عرفنا ثقافة وهواجس الإغريق، حيث تكفلت الفنون بتطبيقاتها المتنوعة بنقل الإنفعالات النفسية التي عاشها الإغريق في ظل بحثهم عن حاضنة روحانية تحوى مخاوفهم من العدم، فكان الفن هو المخرج والوسيلة لبناء ما عرف بالمثيولوجيا، فتعددت الآلهة بتعدد محاور ومجالات الإهتمام فكان النحت منفذا لإسكات هذه الرغبة في بناء الحاضنة الروحانية، فجاءت منحوتة "فينوس دي ميلو" (بين ١٣٠ و١٠٠ قبل الميلاد) لتمثل آلهة الحب والروعة والخصوبة وغيرها من المنحوتات التي تعددت قيمتها الجمالية الفنية لتحتل مكانة هامة في نفوس الشعب الإغريقي، فبالرغم من أن هذا الشعب ساهم في بناء الحضارة الإنسانية في العلوم مثل الهندسة الإقليدية والفلسفة التي كانت سببًا في ميلاد أول أكاديمية في تاريخ البشرية كما تميزوا في المسرح والعمارة، هذا طبعا على أنهم أول شعب يبتكر مفهوم الديمقراطية السياسية والإجتماعية، لكن رغم كل هذا التفوق العلمي والفكري فإن الفن كان ولازال في صدارتها بالنظر لتميزه في إحتواء هذا التنوع الفكري والثقافي ونقل ملامحه للحضارات الإنسانية المتاعقبة. بمثل هذه الأمثلة المتنوعة نعي أن الفن بأجناسه التعبيرية المختلفة يمثل سِجلا للذاكرة الإنسانية،

بما يعكسه من تصورات وأفكار رسمت قيم التعايش والتوارث الثقافي حيث كانت الصورة الفنية تضطلع بدور التأريخ للأحداث وتسجل ملامح الثقافة الإجتماعية، ورغم التعاقب الزمني ظل الفن محافظًا على دوره الذي تخطى البعد الجمالي ليكون مرجعًا بصريًا يجسد الذاكرة ويرسم الهوية الإنسانية.

في ذات الصدد سيهتم بحثنا هذا بإستعراض دور الفن بتطبيقاته المختلفة في تسجيل القيم الحضارية وبناء الثقافة والهوية وبناء الذاكرة الإنسانية، ونقل معالم الحضارات المتعاقبة على مر التاريخ الإنساني. وسيختص بحثنا بدراسة " فن الفسيفساء" بتونس كسند بحثي نناقش من خلاله الدور الحيوي للفنون التطبيقية في إحياء التراث ورسم ملامح الهوية الثقافية والإجتماعية وحتى السياسية، وإستنادُ بحثنا لحرفة " الفسيفساء" مرده كونها تعتبر نموذجًا حيًا للتفاعل الثقافي بين مختلف الحضارات التي مرت على تونس، من القرطاجيين إلى الرومان وصولًا إلى العرب المسلميين.

كما أن هذه الحرفة تتميز بمراوحتها بين معاني مختلفة للتعبير الفني مثل الإبداع و الابتكار وكذلك بين الصناعة ببعدها الإستهلاكي والممارسة الفنية بغايتها الجمالية والإبداعية، كما أنها ممارسة تُظهر قدرة الفنون التطبيقية على الدمج بين الأصالة والمعاصرة، مما يسمح بتطوير الحرف التقليدية وتكييفها مع متغيرات العصر دون التفريط في جوهرها الثقافي. هذا علاوة على كونها تمثل ملمحًا حضاريا بما قدمته من صور وآثار ترصد ذاك التعاقب الحضاري والثقافي في البلاد التونسية، ولازالت إلى يومنا هذا تحافظ على ذات النهج التعبيري بالرغم المتغيرات التي يشهدها عصرنا الحاضر بتحولاته التقنية والجمالية والمشهدية في ظل العولمة والتطور الرقمي، وهو ما من شأنه أن يحيلنا إلى البحث في كيفية تماسك هذه الحرفة وإستمرارها، وسبل تعاطيها مع هذه التحولات الفكرية والجمالية. وللبحث في ذلك سيستند بحثنا إلى أمثلة تطبيقية من ورش الفسيفساء بمدينة الجم التونسية، التي تختص بممارسة " فن أو حرفة الفسيفساء" بتونس، كما أن هذه المدينة بورشاتها المتنوعة تعتبر خير نموذجٍ للاندماج بين الحرف التقليدية والتقنيات الحديثة مثل التصاميم الرقمية والطباعة ثلاثية الأبعاد وغيرها. وهو ما يعطينا دليلا على الدور المميز الذي تقوم به الفنون التطبيقية في تعزيز السياحة الثقافية وتوفير فرص عمل جديدة، مما يدعم الاقتصاد المحلي ويوفر منصة للتفاعل بين الماضي والحاضر.

ختاما هذا البحث سيتطرق إلى دراسة مدى ملائمة الفنون التطبيقية للتحولات الثقافية والحضارية والجمالية وكذلك معاينة مدى إستجابة الفسيفساء كحرفة وفن لإستعاب التنوع الحضاري الذي عرفته البلاد التونسية وكيفية مساهمتها في الحفاظ على الهوية الثقافية وتعزيز التنمية المستدامة. ومنها نخلص لبناء تصور أو إستراتيجية علمية لحماية التراث البصري وتطويره ليتوافق مع تغير السياق ثقافي والإقتصادي المعاصر.

تعمل هذه الدراسة على معالجة الهواجس الإشكالية التالية:

ما مدى مساهمة الفنون التطبيقية في تعزيز الهوية الثقافية؟ وما هي حدود القول بكون الفنون والحرف تمثل سجلاً حضاريًا وثقافيًا وراصدًا للذاكرة الإنسانية؟

كيف يمكن للفن، وتحديدا فن أو حرفة الفسيفساء (بتونس) أن تؤسس لممارسة فنية جامعة لذاك التنوع الحضاري مثل الذي الذي عرفته البلاد التونسية؟ وكيف إستمرت هذه الحرفة لليوم بالرغم من الفروق الفكرية والثقافية التي تداولت على ممارستها؟ ومامدى القول بصمود هذه الممارسة في ظل التحولات التقنية والجمالية الراهنة. وما هي الإستراتيجيات التي يمكن التي يمكن إتباعها لتطوير هذه الحرفة لتتجاوب مع متغيرات العصر دون تجاوز جوهرها التقليدي وتعزيز دورها في التنمية الثقافية والإقتصادية؟

١١-لفسيفساء بتونس : ذاكرة توثق الخصوصية الثقافية:

تميزت البلاد التونسية كغيرها من الأقطار العربية بإرث حضاري وبذاكرة تراثية نابضة بالإبداعات الفنية العاكسة للتطوّر الفكري والتلاقح الثقافي لجل الحضارات التي تعاقبت عليها، وقد ساهم هذا المخزون التراثي في إثراء خزينة البلاد التونسية من متاحف ومواقع أثرية لا تزال إلى اليوم خيرشاهد على ما أبدعه سكانها في شتي المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفنية بأسلوب فني كشف عن مدى تطور وتماسك هذه الممارسات الحاملة لماضي مزدهر وحاضر مشهود بالعديد من الصناعات والحرف التقليدية المختلفة والتي يمكنها أن تلعب دورا متميّزا في تركيبة النسيج الاقتصادي الوطني وما يحمله من أفاق واعدة في مجال التنمية والاستثمار والتشغيل وما يضطلع به من دور حيوي في توفير مواطن الشغل وفي امتصاص مشكل البطالة وتوفير مداخيل ومكاسب مالية هامة للدولة، حيث مثلت الحرف اليدوية ركيزة أساسية في الحركة الإقتصادية لاسيما في القرن التاسع عشر والعشرين، وبالرغم من التحولات والتغيرات التي عرفها العالم المعاصر الذي نزح بشكل كبير نحو التصنيع فإن الحرف التقليدية أو اليدوية ومن ضمنها الفسفساء لازالت تمثل حجر أساس في الداخل الوطني الخام ولها أثر كبير في الحركة الإقتصادية المحلية وهو ما نستشفه من القول المنشور على الصفحة الرسمية لموقع الديوان الوطني للصناعات التقليدية التونسية: "يشغل قطاع الصناعات التقليدية حوالي ٣٠٠ ألف حرفي أي ما يمثل حوالي ١١% من السكان الناشطين (٨٥% منهم نساء) ويساهم ٤% من الناتج القومي الخام و ٢,٥ % من الصادرات كما يساهم في انشاء ٥٠٠٠ فرصة عمل سنويا " . فالصناعات التقليدية بتونس مثل النسيج والفخار (الخزف) والفسيفساء وغيرها تمثل لليوم مردودية تشغيلية ذات قيمة ولازالت تستقطب الرحفاء لما تتميز به من رافد تاريخي وحضاري علاوة على أن الحرف اليديوية يبقى لها رونقًا خاصًا بها في ظل محافظتها على أبجيديات العمل اليدوي رغم التطور الذي يعرفه العالم اليوم ونزوعه نحو التعويل الكلي على الآلة، والتخلى التدرجي عن الإنسان في ظل الذكاء الإصطناعي.

لكن رغم كل هذه الجدليات والهواجس التي تجعل الحرف اليوم مهددة وتبحث عن موطن قدم لها داخل هذا السوق العالمي المتحول بشكل متسارع وكثيف تبقى هذه الحرف لها موقع خاص في نظر رواد البلاد التونسية لما تحمله من خصوصية حضارية وإرث ثقافي كبير، وذلك عائد بالأساس للموقع الجغرافي الذي تقع فيه البلاد التونسية الذي خول لها أن تكون أرضا للإلتقاء الحضارات بتموقعها في شمال إفريقيا وإنفتاح على أوروبا من خلال البحر الأبيض المتوسط، وهذا ما أنتج ذاك التعاقب الحضاري الرهيب الذي عرفته تونس والذي تولد عنه بالضرورة تداول ثقافي وفكري مميز وبذات القدر نشأة صناعة يدوية هجينة جامعة لمختلف الأطر الثقافية التي تعاقبت عليها، حيث عرف المجتمع التونسي جملة من الصناعات اليدوية التي يعود بعضها للفنيقيين و الأمازيغيين والرومانيين وأيضا للحضارة القرطاجنية، وهذه الأخيرة كان لها الدور المميز في جعل تونس حضارة منفتحة على العالم لاسيما في مجالها المتوسطي وتحولها إلى قطب تجاري وحضاري بفضل ما أبدعه سكانها في المجالات السياسية والاقتصادية والفنية وتحديدا في مجال الفلاحة والتجارة، وخاصة الصناعات التقليدية الخزفية والفسيفسائية وفنون النحت وغيرها من الممارسات الحرفية والفنية، حيث عرفت الفنون في البلاد التونسية جملة من التطورات متأثرتا بذلك التفاعل الذي خلقه تعاقب الحضارات، فقد ساهم هذا التواتر الثقافي في خلق تنوع فكري ومنهجي في بناء الممارسات الفنية والحرفية على إختلاف أجناسها. لتصبح الفنون بتنوعتها تعتبر وجهًا من وجوه بروز الحضارة القرطاجية وهي الحضارة أو الدولة الأولى التي تتشكل على أرض البلاد التونسية، وفي ظل بروزها السياسي والثقافي الذي أعطاها بريقا وإنتشارا في محيطها ونسيجها الإقتصادي، مم ولد لها تنافس من بقية الحضارات المجاورة، ومن أبرازها روما التي كانت سببا في تدمير قرطاج في مراحل عدة في مرحلة أولى بتدمير قرطاج البونيّة سنة ١٤٦ق.م ثم إعادة بناء مستوطنة قرطاجيّة في سنة ١٢٢ ق.م وجعلتها عاصمة ثقافية لإمبراطوريتها التي امتدت حسب العديد من

المصادر التاريخية إلى سنة ٤٣٩ م (أنظر الوثيقة رقم١) وخلال هذه الفترة إزدهرت الممارسات الفنية ومن بينها الفسيفساء وتطور على يد الحرفي الفينيقي وكذلك الروماني

الوثيقة رقـــ١ـــم:

التسلسل الحضاري بتونس

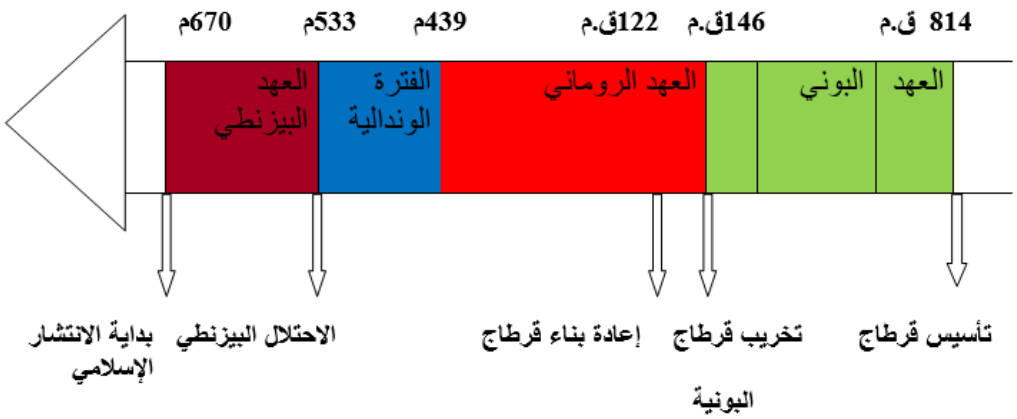

شكلت الفسيفساء ملمحا حضاريا تداولته جل الدول التي مرت على الاراضي التونسية، التي إمتدت لقرون وسنيين عدة بدأ من تأسيس قرطاج وصولا إلى ظهور العهد الإسلامي (من ٨١٤ق.م إلى ٦٧٠م)، وهذا التنوع والتواتر الثقافي والعرقي لم يكن حائلا أمام أن تستمر الفسيفساء كحرفة فنية وتجارية مستثمرتا هذا التنوع لتخلق تلاقح تعبيري وفني وتقني، لتصبح حرفة هجينة جامعة، فقد تميزت كل حقبة من الحقب المتعاقبة بطابعها الخاص في مستوى عملية الإعداد والأدوات المعتمدة في الانجاز، وهو ما من شأنه أن ولد نوعا من التفاعل بين هذه الحضارات حيث شكلت هذه الأدوات والثقافات المختلفة وسائل مهمة لتطوير هذا القطاع ودفعه للإستمرار. والمميز في هذه الحرفة أنها سعت إلى توثيق أبرز الأحداث التي يعرفها المجتمع وكذلك كانت سببا في نقل العادات والتقاليد إلى جانب رسمها للمعارك الأكثر شهرة وغيرها. فبفضل صلابة المادة الفسيفسائية وقدرتها على مقاومة التغيرات الزمنية، أصبحت هذه المادة توظف لنقل أفكار الحضارات الإنسانية المتعاقبة على مرّ التاريخ، لتقوم مقام مرآة تعكس الواقع المجتمعي والحضاري لمحيطها السياسي والفكري وحتى الإقتصادي والثقافي، فقد اهتم اليونانيين مثلا بتجسيد الصور العاكسة للأبعاد المثيولوجية والتي كانت الميزة الطبيعية في بناء الفكر اليوناني وتصورات فنانيه وحرفييه ولذلك مثلت الفسيفساء وسيلة مهمة لنقل هذه الأفكار والممارسات التي تنخرط في النظام العقائدي والثقافي الأثيني الذي أرخت له البحوث الفكرية الفلسفية، وخير دليل على ذلك العمل الفسيفسائي الموالي والذي يمثل نسخة من إحدى اللوحات القديمة الموجودة "بالمتحف الوطني بباردو" وهي خير شاهد على النمط الثقافي والعقائدي لليونانيين، ومدى إهتمامهم بالثقافة وتداولها.

الصورة رقم ١

الشاعر فيرجيل ينصت أشعاره (Le poète Virgile et le deux MuseS)

- **الأبعاد: ١٢٤صم /١٢٤ صم.**
- **التاريخ: النصف الأول للقرن الثالث ميلادي.**
- **الموقع: من حفريات سوسة.**
- **المتحف: المتحف الوطني بباردو.**

هكذا كانت الفسيفساء خير شاهد على تراكم هذه الأفكار في المجتمعات القديمة المهتمة بتصوير مشاهد الآلهة وقواها الخارقة، إلى جانب كونها كانت سببا في وصول معرفة البنية السلوكية والاجتماعية لهذه المجتمعات، لتصبح بذلك مادة فكرية هامة يستند عليها الباحثين والآركيولوجين لدارسة هذه الارث الثقافي لهذه الحضارات، فعلاوة إلى كون الفسيفساء نقلت العقيدة فإنها كذلك لم تخلو من تصوير الحياة اليومية من خلال الصور التي تنقل مشاهد الصيد والأحداث الاجتماعية من حروب وغيرها، وكانت مادة الفسيفساء وسيلة لنشر أفكار الحضارة اليونانية ومعتقداتها، كما أنها ساهمت بشكل متميز في توفير مجالات أرحب لتنشيط الحركة الاقتصادية والتجارية للأفراد والمجتمع ككل. والأهم من هذا وذاك أنها مثلت وثيقة بصرية تواصلية يمكن للشعوب والأفراد التعرف على ثقافات غابرة، لم تكن هناك أي وسيلة متاحة لتوثيقها مثلما هو حالنا اليوم في ظل الفوتوغرافيا والأجهزة الذكية.

الصورة رقم ٢
ديونيسوس على النمرة، نهاية القرن الرابع قبل الميلاد/ الارتفاع: ٢,٦٥ صم /متحف: بيلا (Pella)

وقد مثل هذا التنوع الثقافي والحضاري مخزونًا معرفيًا وتقنيا إستثماره الحرفيين القدماء ولاسيما في التاريخ الحديث لخلق ثراء تعبيري وأسلوبي تولد عنه تنوعًا كبيرا في الأسلوب والتقنية وأيضا المواد الموظفة في تركيبة العمل الفسيفسائي. فما هي أنواع الفسيفساء بتونس؟ وما هي أبرز التقنيات والمواد المعتمدة.

أ. أنواع الفسفساء:

تنوعت الفسيفساء بتونس بتنوع الثقافات، حيث ساهم هذا التداول الحضاري في ميلاد جملة من الأنواع بتنوع موادها وأساليبها الإنشائية، وفيم ما يلي نستعرض أهمها:

فسيفساء الحصى: كانت بدايتها منذ ما قبل الميلاد مع اليونانيين حيث طغت على جل أعمالهم، وتميزت بإعتمادها على مادة الحصى الصخرية التي تتراكم في الأودية والأنهار بألوان عدة على غرار النماذج المصاحبة.

الصورة رقم ٣: نماذج من فسيفساء الحصى الصخرية

تميزت فسيفساء الحصى بالتصاميم ذات اللون الترابي واللون الرمادي كما وظفت هذه المادة (الحصى) في صنع سجدات فسيفسائية هندسية وزخرفية محاطة بضفائر من الطوب المشوي أو الأصداف البحرية لإعطاء اللوحة بعدا جماليا، ولعل ثرائها اللوني هو الذي ساهم في تواصل الإعتماد عليها إلى يومنا هذا.

الفسيفساء الرخامية: تعتمد هذه النوعية من الفسيفساء على قطع الرخام، وهي نوع من الصخور الرخامية المتعددة الألوان التي يتم استخراجها من مقاطع الصخور، وتوجد العديد من أنواع هذه الصخور مثل الرسوبية والبركانية والغرانيت وكذلك الصخور المتحولة مثل الكوارتز، كان منطلق استعمال مادة الرخام مع الرومانيين.

الصورة رقم ٤: نماذج من فسيفساء الحصى الصخرية

الفسيفساء الخزفية: تعرف الفسيفساء الخزفية على أنها تصميم مكون من مكعبات خزفية ملونة، تتشكل هذه القطع من مادة الطين اللينة والسهلة التشكيل التى تحرق في دراجة حرارة عالية بعد تقسيمها إلى قطع وأشكال وألواح خزفية، ثم بعد أن تستوى يتم إخراجها من الفرن لتتم عملية تلوينها بمادة زجاجية ملونة أو بأكاسيد ملونة، ومن ثم يتم توظيفها في بناء لوحات فسيفسائ

الصورة رقم ٤: نماذج من فسيفساء الخزفية

- **الفسيفساء البلورية:** عرف هذا النوع من الفسيفساء في العصر البيزنطي وذلك من خلال استعمال الزجاج الملون في التصوير الفسيفسائي الجداري في الكنيسة والأماكن المقدسة، ويصنع الزجاج والبلوريات بالأساس من خامات الرمل والحجر الجيري والبوراكس، كما أنه يمكن كسر الزجاج والأكاسيد الملونة ثم تصهر في الأفران في درجات حرارة عالية لتخرج في شكل قطع تسمي "بعجينة البلور". وقد شاع توظيف هذه النوعية من الفسيفساء البلورية لغايتين أساسيتين، تتمثل الأولى في الغاية التزويقيّة والتجملية للمباني الدينية وأيضا اللوحات الجدارية، أما الغاية الثانية فهي غاية صناعية و وظيفية وذلك باستعمالها وتوظيفها كأحدى عناصر البناء نظرا لما تتميز به من قدرة على ديمومة والصمود أمام العوامل الطبيعية.

الصورة رقم ٥: نماذج من فسيفساء البلورية

تنوعت أنواع الفسيفساء بتنوع موادها وإختلاف الأطر الثقافية والبيئية، فعلاوة على ما سلف ذكره وجدت أيضا الفسيفساء الخشبية وكذلك الفسيفساء مختلطة التقنيات، وكلها لازالت مستمرة إلى يومنا هذا في ربوع البلاد التونسية بفضل الحرافيين الذين حافظوا عليها وعملوا على تنويع تقنيات وأساليب ومواد تركيبها.

ب. التقنيات والمواد:

لم تختلف البحوث والتعريفات كثيرا في تعريف المنجز الفسيفسائي المشكل من رصف عدد من القطع والمكعبات ذات المواد المختلفة وتجاورها لبعضها البعض لتشكل صورة وتصميم فني معين، ولكن الاختلاف يتمثل في الأسلوب التقني والطريقة التى تركب وترصف بها قطع الحجارة أو قطع الرخام أو الحصى أو القطع البلورية المستعملة في التصميم الفسيفسائي، ومن هنا نجد أن تقـنيات تركـيب ورصف المكـعبات الفسيفسائية متعددة ومن بينها نذكر:

- تقنية المكعبات: "أبوس سكتيل"(opus Sectile)

تطلق هذه التسمية على التصميم الفسيفسائي للأرضيات والمتكوّن من قطع رخامية متنوعة الأشكال من مربعات ومستطيلات ومتعددة الألوان، تركب هذه القطع الرخامية المختلفة الأحجام إلى جانب بعضها بشكل منتظم لتشكيل تصميم هندسي يحاط به إطار، ليعطي أكثر وضوح وجمال للتصميم المنجز. تعرف هذه التقنية بتفاوت أحجام القطع الرخامية الفسيفسائية، حيث نجد ثلاث أحجام من القطع الرخامية :

١- القطع الرخامية الصغيرة: يتراوح حجم القطعة الواحدة بين ٣ سم مربع و٢٥سم مربع.

٢- القطع الرخامية متوسطة الحجم: يتراوح حجم القطعة الواحدة بين ٢٥سم مربع و٨٥ سم مربع.

٣- القطع الرخامية كبيرة الحجم: يتراوح حجم القطعة الواحدة بين ٨٥ سم مربع فما فوق.

- **تقنية القطاعات"الجزئية":أبوس تيسيلاتوم"(Opus Tesselatum) :**

تطلق هذه التسمية على التصميم الفسيفسائي المتكون من قطع فسيفسائية صغيرة مربعة أو مستطيلة الشكل ومركبة بشكل منتظم داخل التصميم الفسيفسائي أحادي الموضوع، وتحاط باللوحة إطار من الزخارف الهندسية أو النباتية أو الحروفية.

في حين يتراوح حجم هذه القطع الفسيفسائية بين ١ سم مربع و٤ سم مربع كما تعرف هذه النوعية من الفسيفساء بالتقنية "الجزئية" التى تعتمد على المكعبات ذات المقاس الواحد المتكرر.

- تقنية "الشريطية الدّوديّة":"أبوس فرمكيلاتوم"(Vermiculatum Opus)

يختص هذا التصنيف بالتصميم الفسيفسائي المشكل من قطع صغيرة جدا لا يتجاوز حجمها ٥٠ ملم ، حيث تستعمل هذه التقنية في تشكيل المواضيع الفائقة الدقة والتعقيد مثل رسم تفاصيل الوجه ورسم العضلات والحركات وفي تجسيد الحيوانات بكل تفاصيليها، كما ترجع هذه التسمية إلى الإمبراطورية الرومانية، وقد عرفت هذه النوعية "بالفسيفساء الدوديّة".

- تقنية "أبوس سيقتنوم"(Opus Signinum ( )

وهي تقنية تعتمد في بناء الأرضيات الفسيفسائية المفروشة بخليط من مادة الجير (الكلس) مع قطع من الفخار والطوب المشوى والمقسم إلى قطع غير متساوية الشكل ثم تشكل عليها أشكال وتصميمات رمزية معينة بقطع حجرية متفاوتة الحجم .

- تقنية "أبوس أنسر توم"(Opus Incertum)

تطلق هذه التسمية على جملة من التصميمات الفسيفسائية المتكونة من قطع من الحجارة المتفاوتة الأحجام والموضوعة بطريقة غير منتظمة.

- **تقنية أبوس لابيلي" (Opus Lapilli):**

تعتمد هذه التقنية في تركيب التصميمات المنجزة بقطع الحصى الطبيعية الموجودة في الأنهار أو في الشواطئ البحرية، حيث توظف مادة الحصى مختلفة الأحجام والألوان .

- **تقنية "أبوس سكيتيلاتيم"(Opus Scutulatum) :**

تطلق هذه التسمية على كل تصميم فسيفسائي قائم على قطع ذات لون واحد مع بعض التداخلات اللونية وتعديل الحجم لبعض القطع.

- **تقنية "أبوس رتيكيلاتوم" (Opus Reticulatum):**

تختص هذه التقنية بالأعمال فسيفسائية المشكلة من القطع المربعة والمستطيلة الشكل والتي تركب في تشكيلات وتصميمات منحنية.

- **تقنية "أبوس ريقيلاتوم "(Opus Regulatum):**

تطلق هذه التسمية على التصميم الفسيفسائي المرصوف من قطع ومكعبات فسيفسائية قائمة على المربع والمستطيل.

نلاحظ من سبق أن الحرفي الفسيفسائي إعتمد على عدة تقنيات بالرجوع إلى البنية التركيبية وكذلك للموضوع والمكان، ورغم ما وقفنا عليه من تنوع وتعدد تقني وتركيبي إلا أن تقنية (Opus Tesselatum) وتقنية (Vermiculatum Opus) يعتبران أكثر التقنيات استعمالا وتوظيفا من قبل جل الفنانين والحرفيين الفسيفسائيين الأفارقة طيلة القرون الأربعة الأخيرة. حيث سيطرت هذه التقنيات على أغلب الممارسات الفسيفسائية بإفريقية عموما وتونس خصوصا، وهذا عائدٌ إلى قدرتهما على التأقلم مع جل المواد المعتمدة في التركيبات الفسيفسائية، فكيف حافظت الفسيفساء والصناعات التقليدية عموما على أساليبها التعبيرية وظلت مستمرة في نهجها اليدوي إلى يومنا هذا في ظل النقلة الصناعية؟ وكيف إستطاعت التأقلم مع المتغيرات الثقافية والفكرية المتعاقبة؟

1. الفسيفساء بتونس: جدلية الماضي والحاضر.

أ. إستعادة الماضي ونسخ الموجود.

لاحظنا مم سبق أن حرفة الفسيفساء عرفت بثرائها التقني وتنوع مواضيعها، حيث ساهم تداخل الثقافات في خلق تنوع أسلوبي وموضوعي في هذه الممارسة، وبتعاقب الحضارات ظلت هذه الحرفة مادة لتوثيق الممارسات اليومية ونقل العادات والتقاليد في أسلوب تعبيري بصري مميز. وهذا ما جعل منها منجز توثيقي مهم له خصوصيته الجمالية والفنية وكذلك الإنشائية زمن إنشائها أي في تلك الحقب التاريخية بالنظر إلى الثقافة البصرية للحرفيين ومعارفهم التقنية التي تميزت في زمن لم يكن فيه نقل الصورة سهلا، على عكس الوقت الراهن الذي تطورت فيه الأساليب الإنشائية والجمالية ونمت فيه القدرات التقنية في مستوى توظيف المواد على إختلاف خصائصها، وهو ما يجعل حرفي العصر الحديث مطالبين ببناء فكر ممارساتي جديد يحقق التكامل والتجانز مع متطلبات العصر الراهن، فعملية إعادة إستنساج المنتجات والتصورات القديمة لا يمكنها أن تحقق الغاية وتتماشي مع ذوق المتلقى المعاصر الذي أضحت له ذائقة بصرية متنوعة وفرتها الوسائط الحديثة في نقل الصورة وكذلك ما توفر العولمة من آليات عمل جديدة، وهذا ما من شأنه أن يطرح جدلية عميقة في الممارسة الفسيفسائية الحديثة بين إستعادة الماضي والبحث عن بناء فني وأسلوبي يتوافق مع الحاضر، وفي هذا يطلعنا رأي الباحث "سعيد توفيق" وفيه يقول :" تلك الإبداعات كانت إبداعات في عصرها وزمانها، أما الآن فقد صارت تراثا وتقليدا متوارثا ينتمي إلى ماض بعيد" أي أن مسألة الإقتداء الوفيٰ بالمنهج القديمٰ في الممارسة الفسيفسائية لا يمكنه الحفاظ على هذا القطاع كما يتصور البعض من الحرفين الذين إستماتوا في إتباع النهج القديم ليس فقط على مستوى التقنيات، بل وصل بهم الأمر إلى إعادة نسج المنجزات القديمة العائدة إلى حاضرات قديمة على غرار البيزانطية أو الرومانية والقرطاجية، حيث يذهب بعض الحرفيين التونسيين إلى نسخ اللوحات الفسيفسائية المعروضة بالمتاحف التونسية مثل متحف باردو وغيره، على غرار الصورة المصاحبة.

صورة رقم ٦: حرفية تونسية تحاكي لوحة رومانية
صورة مأخوذة من موقع مؤسسة ("Micro Mosaic "Tunisia) [٧] [i]

ظلت الحرف اليدوية أو ما أصطلح على تسميته بالصناعات التقليدية في تبعية كاملة لماضي هذه الممارسات، حيث تميز الحرفيون التونسيين في أغلب منجزاتهم بطابع الوفاء والالتزام الكلي بالطرق المتوارثة عبر الأجيال في الانجاز، ولذلك فإن أغلب المنتجات في هذا القطاع لم تعرف أي تطور بل ظلت سجينة العهود السابقة، وليس أدل على ذلك من نوعية المواضيع التي يتناولها الحرفيون في مجال الفسيفساء، فهي في مجملها مواضيع منقولة من أعمال حقب سابقة كالحقبة الرومانية أو البيزنطية، حيث أن جل الأعمال التي أطلعت عليها في ورشات الحرفين بمدينة الجم التونسية تقوم بالأساس على إعادة نسخ الأعمال القديمة. فإن قلنا بكون الإقتداء بالنموذج القديم في مستوى التقنية وطرق التركيب والبناء مرحلة لابد منها ليتمكن الحرفي من تطوير قدرته التقنية وتنمية خبراته فإن ذلك لا ينسحب بالضرورة على الإقتداء الكلي بهذه الفترة حتى في مستوى اختيار الموضوع. فبمثل هذا المنهج ستظل الممارسة الفسيفسائية سجينة حقبها الأولى ولا تشهد بذلك أي تطور، بل إنها ستصبح في قطيعة كلية مع عصرها الراهن، و في جانب أخر فإن عملية التقليد والإقتداء بالنموذج والمواضيع القديمة كانت بالنسبة لبعض الحرفيين ضرورة لترويج بعض الأعمال بالنظر لنوعية الحرفاء، فهذا القطاع يعتمد بشكل كلي على حرفاء أجانب، حيث أن جل الوراشات التي قمت بزيارتها وبخاصة منها في مدينة الجم تعتمد بشكل كلي على السياحة الأجنبية لتسويق منتجاتها، وهذه النوعية من المستهلكين يشترطون نوعية معينة من المواضيع مثل مشاهد الصيد القديمة وصور الآلهة الإغريقية وغيرها من المواضيع التي تعود إلى الحضارات القديمة (الرومانية والبيزنطية) ولعل مثل هذه النوعية من الحرفاء هي التي فرضت على حرفي الفسيفساء العودة إلى الأعمال القديمة ونسخها ليتمكن من ترويجها فهي التي تشهد إقبال عكس بقية المواضيع.رغم خصوصية المستهلك وفئويته، إلا أن الحرفي الفسيفسائي التونسي، لم يغفل كليا على ضرورة التجديد والإبتكار لضمان إستمرارية هذه الحرفة وإنفتاح رقعة جمهورها ولا تكتفي فقط بالسائح الأجنبي، ولهذا خير التوجه نحو رسم الهوية التونسية ونقل الخصوصية الإجتماعية والثقافية لتونس الراهنة.

ب. الفسيفساء المعاصرة: تمثيل للهوية والخصوصية التونسية.

لم يكتفي الحرفي الفسيفسائي التونسي بتقليد الأثار القديمة فقط، بل إنه عمل على إتباع نهج جديد في رسم وإختيار مواضيع لوحاته، وفي هذا كان توجهه نحو الفن التشكيلي كمخرج جديد لبناء أفكاره وإعادة صياغة مواضيع مخالفة لما هو سائد، فلم يعد يكتفي بتقليد اللوحات الفسيفسائية الرومانية والبيزنطية وغيرها من الآثار القديمة فقط، بل إنه عمد إلى البحث عن إعادة تمثيل الخصوصية التونسية من خلال إتجاهه نحو المدرسة الإستشراقية لاسيما الفنانين الذين قاموا بزيارة تونس

ورسم طبيعتها ورصد ثقافتها في لوحاتهم على غرار الفنان الروسي "الكسندر روبتزوف" الذي زار تونس في أوائل القرن العشرين ١٩١٤ وعاش فيها إلى أن توفي سنة ١٩٤٩، وفي هذه الفترة إهتم " روبتزوف" برسم الحياة اليومية التونسية وتفنن في نقل عاداتها من خلال إهتمامه برسم الملامح واللباس، حد أن لوحاته تطبعت بالطابع التونسي لا غير، فرغم أن تونس طيلة تلك الفترة كانت تحت الإستعمار الفرنسي، أي أنها موطنًا لثقافتين متناقضتين إلا أن الفنان الروسي لم يهتم بنقل الثقافة الغربية بقدر ما أهتم برسم الملمح والخصوصية التونسية، ولعل هذا ما جعل الحرفيين الفسيفسائيين بمدينة الجم يتأثرون بلوحاته ويعيدون نسخها بتقنيات الفسيفساء، وقد برز وفائهم لهذه الممارسة من خلال إلتزامهم الكلي بنقل التفاصيل اللونية والشكلية لأعماله، فرغم إختلاف التقنيات والمواد إلا أنهم برعوا في تمثيل الألوان الزيتية التي إشتغل بها "روبتزوف"، من خلال إختيار نوعية الحجارة التي يشتغلون بها في إعادة نسخ هذه اللوحات حتى تكون مماثلة للألوان الزيتية. وهو ما يمكننا ملاحظته من خلال النموذجين المصاحبين.

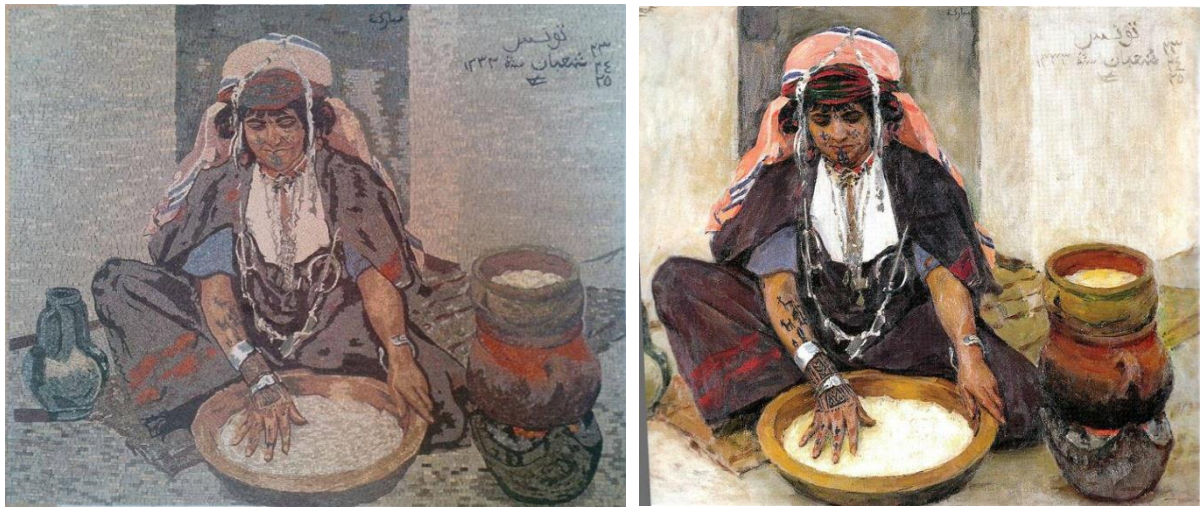

الكسندر روبتزوف
عمل زيتي بعنوان " مباركة" تونس ١٩١٥

النسخة الفسيفسائي
إنجاز مؤسسة دار الجم (٢٠٢٢)

صورة رقم ٧: لوحات الكسندر روبتزوف

كما هو ملاحظ من العمل السابق فإن الحرفي الفسيفسائي بمؤسسة "دار الجم" عمد إلى إعادة تمثيل لوحات المستشرقيين الذين نقلوا الطابع التونسي ورسموا خصوصية الهوية في الممارسة اليومية لسكانها، ولعل هذا الخيار من شأنه أن يتعدى تلك الراتبة التي إستأنس بها جمهور ومتاعي هذه الممارسة في ظل إعتمادها على نقل لوحات الحضارات القديمة، وإن كان هذا التوجه لا ينفي مرة أخرى مسألة النسخ والتقليد، فلا يمكننا الحديث في مثل هذه الأعمال عن الإبداع أو الإبتكار بما هو منافي للنسخ، لكن في ذات الوقت لا يمكننا التغاضي على الحرفية والدراية التقنية لهؤلاء الحرفيين بالنظر لما تميزو به في مستوى الوفاء في نقل اللون رغم ما يكتسيه ذلك من صعوبة بالنظر لنوعية المواد المعتمدة في بناء العمل الفسيفسائي، فمسألة تحديد اللون بإعتماد الحجارة يتطلب بحث كبير لإختيار نوعية الحجارة التي تتوافق مع البنية اللونية لأعمال الفنان الروسي " الكسندر روبتزوف"، وهذا ما من شأنه أن يعطي هذه النماذج أبعاد جمالية وفنية مخالفة لطابيعها الزيتي، كما أن الحرفي من خلال تقليده لهذه الأعمال العالمية إكتسب دراية تقنية عالية خولت له الذهاب إلى مستوى آخر في مستوى تعاطيه مع مسألة تمثيل الهوية التونسية، ففي بعض الأحيان خيروا الإنتصار للتصورات الفردية بتوظيفهم للطبيعة التونسية

أو لمميزاتها على غرار إستحضارهم لشجرة الزيتون بما هي تمثل خصوصية تونسية، أو عودتهم لرسم شخصيات تمثل ملمحًا من الإرث الحضاري التونسي على غرار الأعمال المصاحبة.

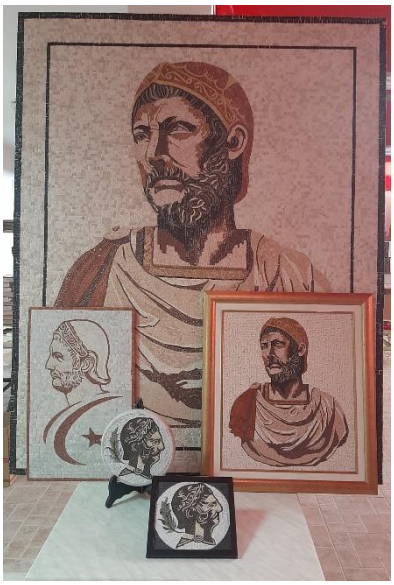

لوحة فسيفسائية
" صورة القائد القرطاجي حنبعل"

لوحة فسيفسائية
" شجرة الزيتون"

الصورة رقم ٨: من أعمال حرفي مؤسسة "دار الجم" ٢٠٢١ / ٢٠٢٢

حرفي الفسيفساء نوعوا في توظيفهم للمحامل فلم يكتفوا بالمحامل التقليدية المعتادة، بل إنهم ذهبوا إلى توظيف محامل جديدة صغيرة الحجم، وهذا طبعًا يتنزل في إطار سعيهم إلى توسيع رقعة تسويق منتاجتهم وإستعاب أكبر قدر ممكن من المستهلكين، حيث عملوا على إنجاز أعمال يستحضرون فيها خصائص الهوية التونسية من زيتون وعلامات ورموز بربرية وكذلك رسم شخصيات عالمية ووطنية وأيضا تقليد لوحات ذات سيط عالمي وكلها كانت على شاكلة أكسسورات على غرار النماذج التالية:

صورة رقم ٩: أكسسورات فسيفسائية من إنجاز حرفيين تونسيين

وفي ظل بحثهم على التنويع والإبتكار عمدوا إلى إستحضار الخط العربي ليكون عنصرا لبناء اللوحة الفسيفسائية، مستثمرين في ذلك خصائصه الفنية والتركيبية إلى جانب أبعاده الروحانية بما هو خط أعتمد في كتابة النصوص القرآنية، كما أنه يتميز بتأثير خاص في نفوس الجمهور. ولعل هذه الخصائص والمميزات هي التي دفعت بالحرفي الفسيفساء إلى توظيفه في إبتكار لوحات فسيفسائية خطية وذلك من خلال القيام بشراكة مع خطاطين وفنانين عرب، وهو ما يجسمه العمل المشترك الذي قامت به مؤسسة دار الجم مع الخطاطة العراقية "جنت عدنان عزت" على إثارة إختتام تظاهرة "تونس عاصمة للثقافة الإسلامية سنة ٢٠١٩"، وقد تميزت أعمال هذه الخطاطة بنفس قومي عربي بحت، وكأنها تريد إعادة إحياء مفهوم القومية العربية والوحدة وغيرها من المفاهيم التي أثرت على الفكر العربي في أواخر القرن الماض (أنظر الصورة عدد ١٠)، لتكون هذه الشاركة إمتدادا لبحث الورشات الفسيفسائية بالجم التونسية على تموقع جديد يتوافق مع الراهن، وهي تجربة بينت مدى قدرة الحرفي الفسيفسائي على إستعاب جل التعبيرات الفنية من رسم زيتي ونحت وخط عربي، حيث عملوا حرفي "دار الجم" على إعادة صياغة لوحات الخطاطة العراقية بتقنية الميكرو موزاييك.

صورة عدد ١٠: صور من المعرض المشترك بين الخطاطة " جنت عدنان" ومؤسسة "دار الجم"

دعوة المعرض

خريطة مصر بخط الثلث بتقنية المكرو موزييك

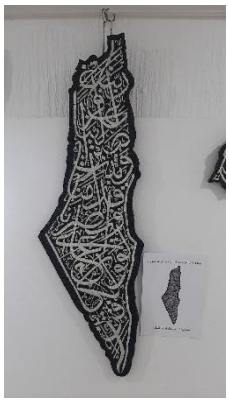

خريطة فلسطين بخط الثلث بتقنية المكرو موزييك

رغم تركيزهم على النَسج والتقليد، فإن حرفي الفسيفساء التونسيين تطرقوا لمسالة الهوية والخصوصية التونسية بطرق واساليب متعددة، وهذا ما من شأنه أن خلق تنوع بصري وشكلي لجماهير هذه الممارسة وفتح أفاق تسويقية جديدة للحرفيين، الذين سعوا جاهدين لبناء ممارسة متكاملة متجذرة في إرثها الحضاري وناقلة هوية وتقاليد التونسيين، ومنفتحة على التجارب الفنية العالمية. لكن هذا التنوع والإنفتاح لا ينفي كون هذه الممارسة الرائدة تعاني اليوم من جملة من الصعوبات اللوجستية والتسويقية فما هي الإستراتجيات الممكن إتباعها لتحقيق ديمومتها وإستمراريتها؟

النتائج والتوصيات: نحو استراتيجية وطنية لتأهيل فن الفسيفساء بتونس.

النتائج الرئيسية:

- الفسيفساء وسيط حضاري بصري.

توصلت الدراسة أن حرفة الفسيفساء بتونس ليست مجرد ممارسة حرفية ذات مدخول مادي وموطن للتشغيل، بل هي ممارسة ترتقي إلى مستوى الفن، وإرتكازها على مخزون حضاري واسع حولها إلى مادة توثيقية مهمة تسرد تاريخ الحضارات المتعاقبة على البلاد التونسيةى وتنقل للأجيال المتعاقبة هجين ثقافي مميز. وهذا ما يحولها إلى أداة مهمة في التآريخ لتونس وتوفير مرجعية بصرية مهمة للباحثين، مما يجعلها أداة فعالة لحفظ الذاكرة الجماعية وترسيخ الهوية البصرية التونسية.

-قدرتها على التكييف والتجديد

تمكنت الدراسة من تبيان مدى قدرة حرفة الفسيفساء على التأقلم مع جل المتغيرات الحضارية والثقافية وكذلك التقنية والإنشائية على مر تاريخ حضورها بالبلاد التونسية، وهذه الروافد التاريخية والتراثية خولت لها الإنسجام مع المتغيرات الجمالية المعاصرة، حيث تم توظيفها في محامل جديدة واستخدامها في تصميم أكسسوارات فنية، كما شهدت إدماجًا لعناصر من الفنون الحديثة مثل الخط العربي والتصميم الرقمي.

-محدودية الإبداع بسبب هيمنة النسخ

رغم ما سبق ذكره، وقفت الدراسة على أن هذه الممارسة تم تقييدها من قبل الجرفيين بمعاني النقل والإستنساخ حيث يعمد أغلبهم لإعادة رسم اللوحات الرومانية والبيزنطية، وهذا ما من شأنه أن يقوض فكرة الإبتكار والتجديد ويفقدها إمكانية التموقع في ظل واقع معاصر متغيير في جل مستوياته الذوقية والجمالية، وهو ما يستدعي تدخلًا مؤسسيًا للدفع نحو التجديد

-دور السياحة وغياب السوق المحلي.

رغم الثراء والتنوع الذي تقدمه حرفة الفسيفساء بتونس ولاسيما بمدينة الجم فإن جمهور مستهليكها يقتصر على الوافد الأجنبي في مواسم السياحة، ولعل هذا ما دفع بورشات الفسيفساء والحرفيين إلى تخصيص منتجاتهم للتوافق مع ذوق ورعبة السائح الأجنبي، وهو ما أبعد المستهلك التونسي الذي يحبذ منتجات من بيئته وتكون مدروسة من حيث التكلفة والسعر. ولهذا يجب وضع إستراتجيات إنتاجية توافقية تضمن بقاء المستهلك الأجنبي وتنفتح على المحلى.

-أهمية إدماج الذكاء الإصطناعي والتكوين الأكاديمي.

مم سبق التوصل إليه من إستنتاجات ولاسيما في مستوى التشبث بالتقليد والإستنساخ ومحدودية التسويق خلصت الدراسة إلى أن إدماج أدوات الذكاء الاصطناعي يعبر مخرجا مهما لبناء افكار ونماذج تتوافق مع المستهلك الأجنبي والمحلي، ويجب بالضرورة إعتماده كمقترح وليس مصمم نهائي حتي لا تفقد هذه الحرفة أسس هويتها، كما يمكن إستثمار الذكاء الاصطناعي في تصميم برنامج تسويق متكامل يفتح المجال لدخول الأسواق العالمية. هذا كما تأكد الدراسة على ضرورة إدراج هذه الحرفة ضمن برامج التكوين المهني والأكاديمي لضمان ديمومتها وإستمراريتها.

التوصيات وإستراتجيات إعادة هيكلة قطاع الفسيفساء.

- **تعزيز الإبتكار وبناء الهوية المعاصرة:**

- **الإشكال:** الإعتماد المفرط على نسخ المواضيع القديمة من شأنه أن يقلص من حدود الإبداع ويحد من تفاعل الممارسة مع حاضرها

- **الحل الإجرائي:**

✓ إطلاق برامج مسابقات سنوية برعاية وزارة الثقافة بعنوان "الفسيفساء التونسية الجديدة"، تُمنح فيها جوائز لأفضل الأعمال المبتكرة المستلهمة من الواقع التونسي.

✓ دمج الطلبة والفنانين الشباب **في** الورشات التقليدية من خلال مشاريع تخرج أو تدريب تطبيقي.

✓ إنشاء مرصد وطني للهوية البصرية التونسية يواكب الإنتاجات الفنية ويدعم نشرها في كتالوجات توثيقية.

- **رقمنة القطاع وتوظيف الذكاء الإصطناعي:**

- **الإشكال**: غياب الأرشفة، وعدم إستثمار أدوات الذكاء الإصطناعي في التصميم والترويج.

- **الحل الإجرائي:**

✓ إطلاق منصة وطنية رقمية للأرشفة والتصنيف، تسمح للحرفيين برفع أعمالهم مع بيانات تقنية وتاريخية.

✓ إستخدام أدوات الذكاء الإصطناعي مثل Runwayml ai و Deepart ai لتوليد تصميمات مقترحة تعتمد على تحليل آلاف الأنماط الفسيفسائية التاريخية، مع تأكيد فرضية التطبيق اليدوي وتوظيف الذكاء الإصطناعي كداعم للبحث وليس مهدم للهوية (الثقافية والإنشائية).

✓ تدريب الحرفيين على برمجيات مثل Adobe Illustrator و Blender ai بمقاربات خاصة بإنتاج تصميمات فسيفسائية رقمية قابلة للتركيب الواقعي، وتكون متوافقة مع النمط التراثي.

- **تطوير التكوين المهني والتقني:**

- **الإشكال:** ضعف التكوين التقني لدى الشباب الجدد وضعف الاندماج بين التعليم والقطاع الحرفي.

- **الحل الإجرائي:**

✓ إحداث شُعب تكوينية جديدة في معاهد الفنون والتكوين المهني تحت عنوان "فن الفسيفساء الذكي" أو "الفسيفساء الرقمية."

✓ تنظيم دورات مستمرة داخل الورشات، تشمل تقنيات التركيب التقليدي والمعاصر، بالتعاون مع منظمات مثل GIZ أو.UNESCO

✓ إبرام اتفاقيات بين المعاهد العليا للفنون وورشات الحرفيين لتأطير مشاريع بحث تطبيقية مشتركة.

- **تطوير التسويق الذكي والرقمي:**

- **الإشكال**: القطاع يعتمد على الحريف الأجنبي التقليدي ولا يواكب التطورات في التسويق الرقمي.

- **الحل الإجرائي:**

✓ تصميم متجر إلكتروني وطني خاص بالفسيفساء، يعرض المنتجات بأسعار واضحة مع شحن دولي، مدعوم بتحليل بيانات السلوك الاستهلاكي.

✓ العمل مع مؤثرين رقميين وسياحيين للترويج للفسيفساء كتجربة ثقافية قابلة للشراء) محتوى على إنستغرام، يوتيوب، تيكتوك.

- ✓ إنشاء دليل سياحي ثقافي رقمي يدمج خرائط لورشات الفسيفساء ضمن التطبيقات السياحية المحلية مثل(Visit "Tunisia") أو (Art tunisia).

- **الشراكات الدولية والإنتاج المشترك:**

- **الإشكال**: العزلة الدولية للحرفيين تحد من التبادل الثقافي والتجديد.

- **الحل الإجرائي:**

- ✓ تنظيم إقامة فنية سنوية بمدينة الجم **تجمع** بين فنانين دوليين وحرفيين تونسيين، لإنتاج أعمال مشتركة.
- ✓ التسجيل في المنصات الدولية للحرف والفنون **مثل .World Crafts Council**
- ✓ عقد شراكات مع معاهد التصميم الأوروبية لتنظيم معارض دورية للفسيفساء التونسية في الخارج.

- **دعم الدولة والاستثمار في القطاع**

- **الإشكال**: الاستراتيجيات الحكومية لا تُنفّذ باستمرارية، ولا تشمل مخصصات كافية.

- **الحل الإجرائي:**

- ✓ إحداث صندوق تمويل خاص بالصناعات التقليدية بالشراكة مع وزارة السياحة والبنك التونسي للتضامن.
- ✓ إدماج الحرفة ضمن استراتيجية الاقتصاد الإبداعي الوطني وتخصيص أيام وطنية للترويج لها.
- ✓ مراجعة قانون الحرفيين لتوفير امتيازات ضريبية للمشتغلين في الفسيفساء وإشراكهم في المشاورات الثقافية.

الخاتمة:

طرحت هذه الدراسة جملة من المسارات التحليلية التي توصلنا من خلالها إلى أن ممارسة حرفة الفسيفساء في البلاد التونسية تتعدى كونها مجرد ممارسة تقليدية، بل إنها تحتوي طاقة تعبيرية هائلة يمكن أن تكون جزءا مهمًا لبناء هوية بصرية فنية وحرفية معاصرة لتونس تستمد جذورها من الذاكرة الجماعية وتخاطب الحاضر والمستقبل، نظرا لما تتميز به من إرث حضاري وفكري عميق ضاربًا بجذوره في التاريخ القديم لتونس، فالفسيفساء حرفة تستعيد تاريخ حضارة وتروى ثقافات شعوب وتنقل لنا هويات مختلفة، حيث بينت مدى قدرتها على إستعاب هذا التنوع وظلت ممارسة حافظة للذاكرة بصريا.

وهذا ما تمكنت من كشفه من خلال زياراتي الميدانية لورشات الفسيفساء بعدة مناطق تونسية ويبقى أبرازها مدينة الجم، التي تميزت بتعدد وراشاتها المتخصصة في الإنتاج الفسيفسائي، كما ساهم تحليلنا لجملة من النماذج البصرية وإتباع نهج المقاربة مع تجارب عالمية في ذات التخصص لاسيما القديمة منها، في وقوفنا على حقيقة مفادها كون هذه الممارسة تعترضها جملة من الصعوبات والمشاكل التي حالت دون حفاظها على ذات التماسك والتطور الذي عرفتها طيلة قرون مضت، ولعل أبرزها هو تقوقع الحرفيين داخل قوالب النقل وإعادة نسخ الأعمال القديمة، إضافة إلى إفتقادها إلى إطار مؤسستي مهيكل يدفع نحو التجديد والإبتكار الذي من شأنه أن أن يوفر بيئة عمل ملائمة للحرفيين وتدفعهم للتطور ومجارت المتغيرات التعبيرية العالمية.

لكن هذا الواقع مثل مجالا لرفع سقف التحدي لدى بعض الحرفيين الذين كان لهم هذا الوضع دافعا لمزيد العطاء والمثابرة لتطوير أنفسهم والتقدم بوراشاتهم وفتح آفق تسويق منجزاتهم الفسيفسائية على غرار ما لاحظناه خلال هذا البحث في مؤسسة " ميكرو موزيك، دار الجم" التي نوعت في مواضيعها وعملت على تجاوز التقليد وعدم الإكتفاء بنسخ الماضي ومنها ذهبوا إلى الدخول في مجالات جديدة لإستقطاب المستهلكين وفي هذا كان توجههم نحو الأكسسورات، وهي محاولات لاقت

إستحسان أهل الأختصاص وجمهور هذه الممارسة لكنها تبقى بحاجة ماسة إلى الدعم المؤسستي وتخطيط إستراتيجي مهيكل حتى تصبح ممارسة إبداعية مستدامة.

ولأجل ذلك عملنا في نهاية هذه الدراسة على تقديم توصيات وأفكار من شأنها أن تساهم في تشكيل بنية تفاعلية جديدة للفسيفساء الراهنة مع ماضيه، ويمكن في ذلك إستثمار الذكاء الإصطناعي في مستوى التصميم والتسويق، وإدماج حرفة الفسيفساء في المسار التعليمي العالي الذي من شانه أن يؤهل الحرفيين تقنيًا وجماليًا. وبنظري تبقى هذه الأفكار من المحركات الأساسية لبناء أي إستراتيجية لتطوير هذه الممارسة. وعليه وجب تكاتف الجهود بين الأكاديمي والبنية المؤسساتية العامة والخاصة قصد إستثمار هذه الممارسة الفنية كمجال للبحث والتكوين بالإضافة إلى أنه يرتقي ليكون مرتكز إستثماري يؤسس لرؤية جديدة للثقافة البصرية بتونس على غرار ماثيلتها بالدول الغربية والعربية يكون قوامها التفاعل بين التراث والحداثة، وبين الفنون التقليدية والتكنولوجيا المعاصرة، لغاية تكوين هوية وطنية ديناميكية منفتحة على أطرها الإقتصادية والثقافية المحلية والعالمية.

المراجع:

✓ **بالعربية:**

- بن الكيلاني، ابتسام .ملاحظات ميدانية وزيارات ميدانية إلى ورشات الفسيفساء بمدينة الجم .تدوينات شخصية. الجم، تونس، مارس–أفريل ٢٠٢٥.

•ban alkilani, abtisama. mulahazat maydaniat waziarat maydaniat 'iilaa warashat alfusayfisa' bimadinat aljum. tadwinat shakhsiati. aljum, tunis, maris-'afril 2025.

- توفيق، سعيد .أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة .بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧.

•tufiq, saeid. 'azmat al'iibdae fi thaqafatina almueasirati. bayrut: almuasasat aljamieiat lildirasat walnashr waltawziei, 2007.

- مجموعة من المؤلفين .كتاب التاريخ لتلاميذ السنة الأولى من التعليم الثانوي .تونس: المركز الوطني البيداغوجي، ٢٠١١.

•majmueat min almualifina. kitab altaarikh litalamidh alsanat al'uwlaa min altaelim althaanawi. tunis: almarkaz alwatanii albaydaghuji, 2011.

✓ **بالفرنسية:**

- Yacoub, Mohamed. Splendeurs des Mosaïques de Tunisie. Tunis: Ministère de la Culture, 2002.
- Ben Kilani, Ibtissem. Visites de terrain et observations ethnographiques dans les ateliers de mosaïque à El Jem. Notes de terrain personnelles. El Jem, Tunisie,

✓ **الإلكترونية:**

- الديوان الوطني للصناعات التقليدية التونسية. "الصناعات التقليدية والحرف الفنية في تونس " https://2u.pw/i269rDWo
- صفحة ورشة "ماكرو موزييك" على فيسبوك https://www.facebook.com/micro.mosaic.tunisia .

[i] مقال بعنوان " الصناعات التقليدية والحرف الفنية في تونس" نشر بالموقع الرسمي لديوان الصناعات التقليدية التونسية عبر الرابط التالي: https://2u.pw/i269rDWo

[i] **الحضارة البونية:** هي الحضارة التي نتجت عن تلاقح الحضارة الفينيقيّة بغرب المتوسط مع الحضارات المحليّة وضمنها اللوبية على وجه الخصوص.

[i] توفيق (سعيد): **"أزمة الإبداع في ثقافتنا المعاصرة"**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧. ص٢٦.

[i] للإطلاع على موقع مؤسسة ميكرو موزاييك (دار الجم) من خلال الرابط الآتي https://2u.pw/fbQrK. أطلع عليه بتاريخ ٢٢. يانير ٢٠٢٥.